التقرب إلى الله تعالى

اختلف أهل الإسلام في كيفية التقرب إلى الله عزّ وجلّ، فمنهم من ظنّ أنّ التقرب إلى الله عزّ وجلّ يكونُ بالتقلل من الدنيا وتحريم الطيبات وترك المباحات فاعتزلوا الناس ومنعوا أنفسهم ما أحل الله لهم.

ومنهم فريقٌ آخر رغب في العبادة ولكنه لم يقيّدها بالشرع، فعبد الله كما أحبّ هو لا كما أراد الله، فأحدث في الدين ما ليس منه.

وأما أهلُ الحقّ المتمسكون بالكتاب والسنة فقيّدوا أنفسهم بالدليل، وداروا مع الشرع حيثُ دار، وحكّموا الكتاب والسنة في كل صغيرٍ وكبير، فأدوا الفرائض ولم يخلّوا بشيءٍ منها لعلمهم أنّ أحب الأعمال إلى الله ما افترضه على عباده كما في صحيح البخاري، ثم اجتهدوا في النوافل كلٌ حسب طاقته، ولم يُقدموا المفضول على الفاضل، وقد حصر ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين طرق العابدين ومسالكهم في التقرب إلى الله واختلافهم في تفصيل بعضها على بعض في أربعة أقسام:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا لأنه أبعد الأشياء عن هواها وهو حقيقة التعبد.

والصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

والصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه.

ثم جرى قلمُ ابن القيم بكلامٍ رائق مستقى من مشكاة النبوة كأنّ عليه أنوار الوحي، يأخذ بلب قارئه، بيّن فيه حال **الصنف الرابع**: وهم سادة العبّاد، وأئمة الزهاد المقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحوالهم، ونحن نترك المجال لابن القيم ونسوق كلامه بطوله لما فيه من النفع العظيم، وهو غير محتاجٍ منا إلى تعليق.

قال رحمه الله: الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الربّ في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجدّ والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أكمل الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بَعُد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأنّ الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف على ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإنّ المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير. فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم هم أهل التعبد المقيد فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته.

فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم (طقوس معينه)، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] حقا، القائم بهما صدقا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، إلى آخر كلامه رحمه الله.

أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله أداء فرائضه:

فمن أراد حبّ الله والتقرب إليه فليكن متبعاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأفعاله إذ لا سبيل للقرب من الله إلا بهذا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [الحشر: ٧]. وهذا على وجه العموم.

أما على الخصوص فهناك أعمال كثيرة تقرّب العبد إلى خالقه جلّ وعلا كالصلاة والحج والإنفاق وبرّ الوالدين وغيرها من أعمال الطاعات، لكن أهم الأعمال على الإطلاق وأحبّها إلى الله وأزكاها هي المحافظة على الفرائض وتأديتها على الوجه الصحيح لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: « **إِنَّ اللهَ تعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِيْ وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**». رواه البخاري وغيره(١).

طريق التقرب إلى الله والخشوع في الصلاة:

إنّ أعظم وسيلة يتقرب بها العبد إلى الله عزّ وجلّ بعد توحيده هي الصلاة المفروضة، ثم أداء باقي الفرائض التي افترض الله تعالى عليه، ثم الإكثار من النوافل التي شرعها ليتقرب بها العباد إليه، وليرتفعوا بها إلى أعلى الدرجات.

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «... **وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه**».

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢٣٨٤، رقم ٦١٣٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢/٥٨، رقم ٣٤٧)، والبيهقى (١٠/٢١٩، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٤).

١٢ ـــــــ

من فروض الكفايات، ويليها الصوم فالحج فالزكاة على ما جزم به بعضهم، وقيل: أفضلها الزكاة، وقيل: الصوم، وقيل: الحج، وقيل غير ذلك. انتهى.

وقال النووي في «المجموع»: فالمذهب الصحيح المشهور أنّ الصلاة أفضل من الصوم وسائر عبادات البدن، وقال صاحب المستظهري في كتاب الصيام: اختلف في الصلاة والصوم أيهما أفضل؟ فقال قوم: الصلاة أفضل، وقال آخرون: الصلاة بمكة أفضل والصوم بالمدينة أفضل، قال: والأول أصح. انتهى.

وقد ثبتت أفضلية بعض الطاعات في بعض الأحاديث الصحيحة وقد حُمِل ذلك على أنه إجابة مخصوصة لسؤال مخصوص تناسب حال كل سائل وما يليق به، ففي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنّ رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الأعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال: « **الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(١).

قال ابن دقيق العيد في «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام»: وسؤاله عن أفضل الأعمال طلباً لمعرفة ما ينبغي تقديمه منها، وحرصاً على علم الأصل، ليتأكد القصد إليه وتشتد المحافظة عليه، و«الأعمال» ها هنا لعلها محمولة على الأعمال البدنية، كما قال الفقهاء: أفضل عبادات البدن الصلاة. واحترزوا بذلك عن عبادة المال، وقد تقدم لنا كلام في العمل: هل يتناول عمل القلب، أم لا؟ فإذا جعلناه مخصوصاً بأعمال البدن، تبين من هذا الحديث: أنه لم يرد أعمال القلوب، فإنّ من عملها ما هو أفضل، كالإيمان.

وقد ورد في بعض الحديث ذكره مصرحاً به أعني الإيمان، فتبين بذلك الحديث أنه أريد بالأعمال ما يدخل في أعمال القلوب، وأريد بها في هذا الحديث ما يختص بعمل الجوارح، وقوله: «الصلاة على وقتها» ليس فيه ما يقتضي أول الوقت وآخره، وكأنّ المقصود به الاحتراز عما إذا وقعت خارج الوقت قضاء. وأنها لا تتنزل هذه المنزلة، وقد ورد في حديث آخر: «الصلاة لوقتها» وهو أقرب لأن يستدل به على تقديم الصلاة في أول الوقت من هذا اللفظ، وقد اختلفت الأحاديث في فضائل الأعمال، وتقديم بعضها على بعض، والذي قيل في هذا: إنها أجوبة مخصوصة لسائل مخصوص، أو من هو في مثل

---

(١) أخرجه البخارى (٦/٢٧٤٠، رقم ٧٠٩٦)، ومسلم (١/٩٠، رقم ٨٥).

حاله، أو هي مخصوصة ببعض الأحوال التي ترشد القرائن إلى أنها المراد، ومثال ذلك: أن يحمل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله: «**ألا أخبركم بأفضل أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم؟** » وفسره بذكر الله تعالى على أن يكون ذلك أفضل الأعمال بالنسبة إلى المخاطبين بذلك، أو من هو في مثل حالهم، أو من هو في صفاتهم، ولو خوطب بذلك الشجاع الباسل المتأهل للنفع الأكبر في القتال لقيل له: «الجهاد» ولو خوطب به من لا يقوم مقامه في القتال ولا يتمحض حاله لصلاحية التبتل لذكر الله تعالى، وكان غنياً ينتفع بصدقة ماله لقيل له: «الصدقة» وهكذا في بقية أحوال الناس، قد يكون الأفضل في حقّ هذا مخالفاً في حقّ ذاك، بحسب ترجيح المصلحة التي تليق به. انتهى.

فهذا كلام نفيس فتدبره ننتفع به، ونحرص على الاستزادة من الخير، والمحافظة على الفرائض فإنّها أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى ثم الإكثار من نوافل الطاعات، ولنضرب في كل باب منها بسهم، ولنبتعد عن كل ما نهى عنه الشرع وحذر منه، فذلك طاعة من أفضل الطاعات.

obeikandl.com

نبذة تاريخية عن التصوف

يعتبر التصوف الإسلامي جزءاً أساسيًا في التراث الإسلامي حيث تبوأ مكانا هاما في الفكر العربي الإسلامي، والاهتمام بالتصوف قديم، تناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري وغيرهم، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن خلدون، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام إضافة إلى جهود المستشرقين، و لم يتفق هؤلاء على رأي سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله فاختلفت الآراء والمشارب حوله.

أصل كلمة التصوف

من حيث اللغة:

كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف عند المسلمين على عدة أقوال، أشهرها:

١- أنه من الصوفة؛ لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى.

٢- أنه من الصِّفة؛ إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها.

٣- أنه من الصُفّة؛ لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعطيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم).

٤- أنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى؛ وتسابقهم في سائر الطاعات.

٥- أنه من الصوف؛ لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاخشيشان.

٦- أنه من الصفاء، فلفظة «صوفي» على وزن «عوفي»، أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وظنه البعض مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً ... صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي

٧- أنها في الأصل صفوي، ونقل ذلك الطوسي أبو نصر السراج، في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي، عن صوفي فقال: (كان في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك، فقيل: صوفي، وبمثل ذلك نقل عن أبي الحسن الكناد: هو مأخوذ من الصفاء).

٨- بينما أرجع البعض اسم «التصوف» إلى رجل زاهد متعبد في الجاهلية كان يلقب بـــ(صوفة) واسمه هو الغوث بن بركان، أو في رواية الغوث بن مر، كما أشار الزمخشري في «أساس البلاغة» والفيروزآبادي في قاموسه «المحيط»، إلى أن قوماً في الجاهلية سموا بهذا الاسم وكانوا يعبدون الله في الكعبة ومن تشبه بهم سمي صوفي. ومنهم نشأت طبقة المتحنفين مثل ورقة بن نوفل.

٩- المستشرقين يرون أن كلمة صوفي مأخوذة من (صوفيا) اليونانية بمعنى الحكمة وعندما فلسفت العرب عبادتهم حرفوا الكلمة وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية، أو مأخوذة من (ثيوصوفيا) بمعنى الإشراق أو محب الحكمة الإلهية، بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة (صوفي) والكلمة اليونانية (صوفيا)، وكذلك لوجه الشبه الموجود بين كلمة (تصوف)، (تيوصوفيا)، وأن كلمتي صوفي وتصوف أخذتا من الكلمتين اليونانيتين (سوفيا) و(وتيوسوفيا) وبهذا الرأي أخذ محمد لطفي جمعة إلا أن نولدكه أثبت خطأ هذا الزعم كما أيده في ذلك نيكلسون، وماسينيون، وبالإضافة إلى البراهين القوية الأخرى التي أقامها نولدكه، فإنه يدلل على أن (س) اليونانية نقلت إلى العربية كما هي سينا، لا صادا كما أنه لا يوجد في اللغة الآرامية كلمة تعد واسطة لانتقال سوفيا إلى الصوفي[١].

فهذا هو الاختلاف الواقع في أصل لفظة التصوف واشتقاقها، ولذلك اضطر الصوفي القديم عليّ الهجويري المتوفى سنة ٤٦٥ هـــ إلى أن يقول[٢]: (إن اشتقاق هذا الاسم لا يصح من مقتضى اللغة في أي معنى، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه).

---

(١) انظر: تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غني ١/٦٧-٦٨.

(٢) انظر: كشف المحجوب للهجويري ترجمة عربية دكتورة أسعاد عبد الهادي قنديل ص ٢٣٠ ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ م.

وبمثل ذلك قال القشيري في رسالته[١]: (ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق). كما أنه مما لا شك فيه أنه لا يصح ولا يستقيم اشتقاقه من حيث اللغة إلا من الصوف، ولو أنه هو اختيار الكثيرين من الصوفية وغيرهم كالطوسي، وأبي طالب المكي، والسهروردي وأبي المفاخر يحيى باخرزي، وابن تيمية، وابن خلدون من المتقدمين. وأرجح الأقوال وأقربها إلى العقل مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة إلى الصوف، وأن المتصوف مأخوذ منه أيضا، فيقال: تصوف إذا لبس الصوف.

من حيث الاصطلاح:

كثرت الأقوال أيضا في تعريف التصوف تعريفا اصطلاحيًا على آراء متقاربة، كل منها يشير إلى جانب رئيسي في التصوف، والتي منها:

١- قول الشيخ زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية.

٢- قول الشيخ أحمد زروق: التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول «علم التوحيد» لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان. وقال أيضا: وقد حُدِّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه.

٣- قول الإمام الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني.

٤- قول الإمام أبو الحسن الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية.

٥- قول الإمام ابن عجيبة: التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة.

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية ٢/٥٥٠.

جذور التصوف

أصل التصوف:

يرجع أصل التصوف - كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على العبادات واجتناب المنهيات ومجاهدة للنفس وكثرة لذكر الله - إلى عهد رسول الله محمد وعهد الصحابة، وأن أول صوفي هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بحد ذاته أول من دخل الخلوة في غار حراء، وأن التصوف يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية.

بداية ظهور اسم الصوفية:

يقول الإمام القشيري: اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَتَسمِّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس - ممن لهم شدة عناية بأمر الدين - الزهاد والعُبَّاد، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة.

ويقول محمد صديق الغماري: ويعضد ما ذكره ابن خلدون في تاريخ ظهور اسم التصوف ما ذكره الكِنْدي - وكان من أهل القرن الرابع - في كتاب «ولاة مصر» في حوادث سنة المائتين: إنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمَّوْن بالصوفية يأمرون بالمعروف. وكذلك ما ذكره المسعودي في «مروج الذهب» حاكياً عن يحيى بن أكثم فقال: إن المأمون يوماً لجالس؛ إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين؛ رجل واقفٌ بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ، يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية.

فهاتان الحكايتان تشهدان لكلام ابن خلدون في تاريخ نشأة التصوف. وذُكر في «كشف الظنون» أن أول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة خمسين ومئة (١٥٠هـ).

ظهور التصوف كعلم:

بعد عهد الصحابة، والتابعين، دخل في دين الإسلام أُمم شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ - بعد تدوين النحو في الصدر الأول - علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض «الميراث» وغيرها.

وبعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، من باب سد النقص، واستكمال حاجات الدين في جميع نواحي النشاط.

وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

١- الحارث المحاسبي، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ، ومن كتبه: «بدء من أناب إلى الله»، و«آداب النفوس»، و«رسالة التوهم».

٢- أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ، ومن كتبه: «الطريق إلى الله».

٣- أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة ٣٧٨ هـ، وله كتاب: «اللمع في التصوف».

٤- أبو بكر الكلاباذي، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ، وله كتاب: «التعرف على مذهب أهل التصوف».

٥- أبو طالب المكي، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، وله كتاب: «قوت القلوب في معاملة المحبوب».

obeikandl.com

٢٠ ـــــــ

التصوف في الأندلس

وجد التصوّف طريقه إلى الأندلس منذ القرن الثاني للهجرة وذلك تحت تأثير الاتصال بحركة التصوف في ديار الإسلام، سواء عبر الشمال الإفريقي أو عن طريق الصلات المباشرة مع المشرق الإسلامي، إذ كانت حركة العلماء لا تنقطع، فكان هناك من يغادر الشام للإقامة في الأندلس، كذلك كان علماء الأندلس يقصدون الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج فيتصلون بالمتصوفة في مكة والمدينة، بل ويسافرون للتباحث مع علماء ومتصوفة في العراق وبلاد الشام وبلاد فارس أيضًا. ازدهر التصوف في الأندلس بدخول القرن السابع الهجري وأصبح محيي الدين ابن عربي أحد رؤوس الصوفية حتى لقب بالشيخ الأكبر.

لاق التصوف ازدهارًا واسعًا، وهو ما تؤكده عشرات الأسماء التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية من أمثال موسى بن عمران الميرتلي، وأبو الحجاج يوسف الشبربلي، وأبو عبد الله بن المجاهد، وأبو عبد الله قسم، وأبو العباس العرياني، ونونة فاطمة بنت أبي المدني القرطبية، وأبو عبد الله الشرفي، وأبو عبد الله محمد الخياط، وأحمد الحزاز، وأبو علي حسن الشكاز، وعبد الله المالقي.

من متصوّفة الأندلس الأوائل الذين نالوا قدرًا من الشهرة ابن سبعين، ابن عباد الرندي الذي كان صوفيا على الطريقة الشاذلية، قام بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري، ويظهر أنه ترك أثرًا واضحًا في المصطلحات التي استعملها الصوفي المسيحي المعروف بالقديس يوحنا الصليبي وأتباعه المسمون بأهل النور، ومن دلائل ذلك استعمال الشاذلية وأهل النور لفظي «البسط» و«القبض» بمعنى النور والظلام، وكذلك زهد الفريقين في الكرامات.

ترك متصوفة الأندلس أثرا لا يُمحى في تاريخ المسيحية في أوروبا وهو ما يظهر جليا في كتابات رامي لك أو رايموند لوليو الصوفي النصراني الميورقي، اعتمد على كُتّاب المسلمين، خصوصا ابن عربي، وتتجلى في كتابات لوليو رقة ظاهرة للمسلمين تولدت من دون شك من مداومته على قراءة الكتب العربية، فقد كان يرمي إلى أن ينقل إلى النصرانية

طائفة مما جرى عليه المسلمون من تقاليد دينية، فدأب على استهلال رسائله باسم المسيح، لأن المسلمين يستهلون كتبهم باسم محمد، وقام بفصل الرجال عن النساء في الكنائس وهو يمتدح في المسلمين إخلاصهم لدينهم، وأراد أن تتلى أسماء الله في الكنائس كما يرتل المسلمون القرآن في المساجد، وهو يؤكد في كتابه «بلا نكرنا» أنه ألف كتاب «الصديق والمحبوب» على طريقة الصوفية، ولا يبعد أن يكون ألف على نهج ترجمان الأشواق لابن عربي.

التصوف في المغرب الأقصى

إن تاريخ المغرب هو تاريخ سيادة التيار الصوفي بتعبيراته المختلفة، ولم يشكل هذا التيار محاضن للتربية الروحية فقط، بل محاضن للجهاد أيضا، لقد كانت الممارسة الصوفية هي الشكل السائد للتدين في المجتمع المغربي وذالك من خلال الرعاية الرسمية للدولة.

مر التصوف في بلاد المغرب الأقصى بمرحلتين: مرحلة التبعية؛ حيث تم إدخال التصوف ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي من قِبل حجاج الأماكن المقدسة، ومن الصعب الحديث في هذه الفترة عن تصوف «مغربي»؛ لكون أهم الصوفية المغاربة -أمثال أبي يعزى يلنور، وابن عربي، وعلي بن حرزهم- كانت صوفيتهم شرقية قلبا وقالبا.

ومرحلة «مغربة» التصوف التي دشنها عبد السلام بن مشيش، فبرغم أنه درس على يد أئمة الصوفية التابعين -كأبي مدين الغوث وعلي بن حرزهم- فإنه لم يسلك مسلكهم؛ بل سعى إلى التميز عنهم، وقد أكمل تلميذه أبو الحسن الشاذلي مرحلة «مغربة» التصوف لتصل ذروتها مع محمد بن سليمان الجزولي.

انتشار التصوف في المغرب في البداية كانت تهدف أساسا إلى نشر الإسلام فيما وراء الحواضر؛ حيث بدأ منذ القرن الثالث عشر الميلادي يتوغل في الأرياف.

وبدءا من القرن الرابع عشر الميلادي انتقل التصوف من الإطار الدعوي إلى الإطار السياسي، وبدأت المعالم الأولى للطرق الصوفية تتشكل في العهد الموحدي ليكتمل هذا التشكل مع أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الذي يعتبر مؤسس أول طريقة صوفية في

المغرب جراء التحولات التي طرأت على بنية المجتمع. ويمكن القول بأن الطرق الصوفية أصبحت ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي مؤهلة لتزويد البلاد بنظام الحكم.

امتدت الصوفية المغربية إلى ما وراء الحدود، فتأسست بمختلف أقاليم الشمال الإفريقي – بل وحتى في مصر – زوايا تقبس من معين الطرق المغربية كالعيساوية والتيجانية والطيبية بتونس، كما أحدث المغاربة أورادًا خاصة لطرق خارجة عن المغرب مثل القادرية.

يتميز المشهد الصوفي المغربي حاليا بتنوع الطرق والزوايا التي تمتد على طول التراب المغربي، من الشمال إلى الجنوب، ومن أشهرها: الطريقة الكتانية، والعلوية، والبودشيشية، والزاوية الريسونية، ومجلس أهل الله، والطريقة البوعزاوية والطريقة المعينية.

ما يميز الزوايا الصوفية بالمغرب هو اتفاقها جميعا على ضرورة «الشيخ» في السلوك إلى الله تعالى، وهذا ما يثير تحفظات منتقدي الصوفية؛ لأن هناك مبالغات غير مقبولة في النظر للشيخ، والاعتماد عليه في الزاد الإيماني والمراقبة والمشارطة.

طبيعة التنشئة السياسية التي يتلقاها مريدو الزوايا والطرق الصوفية تكرس بشكل متزايد الثقافة السياسية القائمة على الانكفاء والانشغال بالدين بمفهومه الطقوسي والشعائري بعيدًا عن الاهتمام والخوض في أمور الشأن العام، وبالتالي تكريس مزيد من السلبية السياسية التي تؤدي إلى تزايد عدد أعضاء التيار الديني الشعبي الموالي للسلطة السياسية، بالإضافة إلى أنها تشكل أحد الروافد الأساسية لجلب التأييد وإحياء الولاء الديني والروحي لأمير المؤمنين.

أول مراكز الذكر:

برزت زوايا أصبحت مراكز للتصوف وتلاوة الأحزاب وقراءة الأوراد والذكر. وكان أنشط هذه الزوايا:

١- زاوية حي المخفية بفاس وزاوية حي العيون بتطوان، وقد أسسهما معا الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي المتوفي سنة ١٠١٣ هـ.

٢٤ ـــــــ

فيه من مساواة وعدل وإحساس بالوجود والأهمية، فقد كان شكلا من أشكال التعبير عن الغضب الشعبي والتمييز الطبقي بين طبقة الأغنياء والمترفين وطبقة الفقراء والمعدمين.

مر التصوف في الجزائر بمرحلتين أساسيتين هما:

١- فترة التصوف النخبوي، وذلك خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجرية: وهي الفترة التي بقي فيها التصوف يدرس في المدارس الخاصة، واقتصاره على طبقة معينة من المتعلمين، وعدم انتشاره بين الطبقات الشعبية، وبقائه في الحواضر الكبرى: تلمسان، بجاية، وهران.

٢- فترة التصوف الشعبي، أو ما تعرف بفترة الانتقال من التصوف الفكري إلى التصوف الشعبي، وقد وقع ذلك في القرن التاسع الهجري، وفيها انتقل التصوف من الجانب النظري إلى الجانب العملي، وهو الانتشار الكبير للزوايا والرباطات في الريف والمدن، وانضواء الآلاف من الناس تحت لوائه، والتركيز على الذكر والخلوة، وآداب الصحبة وما إليها من مظاهر التصوف الشعبي. وبفتح باب التصوف للعامة وأهل الريف، انتقل من النخبة إلى العامة، من المدينة إلى الريف، وظهرت الطرق الصوفية الكبرى وانتشرت في مختلف أرجاء القطر: كالقادرية، المدينية، الشاذلية.

حالياً تحظى برعاية خاصة من قبل السلطات، تجلت بالأساس في تنظيم الملتقيات الوطنية والإقليمية، وحتى الدولية التي تعرف بالدور التاريخي والحضاري لهذه الفرق فضلا عن فتح وسائل الإعلام الثقيلة أمامها بغية الترويج لأفكارها وأدبياتها.

التصوف في مصر

اشتهرت بمصر عدّة طرق صوفيّة كانت في معظمها وافدة وليست من تأسيس المصريين، كانت تمثل مع بداية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م نحو ٣ ملايين منتسب ينتظمون في ٦٠ طريقة، أيدت جمال عبد الناصر بوضوح في القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية والخارجية من البداية فعلى سبيل المثال سار أكبر موكب صوفي رسمي في مصر تأييدًا لعبد الناصر في أعقاب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧. وما زالت الطرق الصوفية تسير على هذا النهج حتى الآن من تأييد الحاكم وعدم اتخاذ أي مواقف معارضة له، وعدم تأييد أي

قوى معارضة. وهذا كله أضعف من إقبال الناشطين الإسلاميين عليها، فلا يقبل عليها إلا راغبي الراحة النفسية والبعد عن مشكلات الواقع بكل تعقيداته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من أهم الطرق الصوفية في مصر على مر التاريخ:

١- الطريقة القادرية انتشرت طريقته في مصر، وأصبحت هذه الطريقة أصل الكثير من الطرق الصوفيّة بمصر والمغرب.

٢- الطريقة الرفاعيّة أسّست بالعراق، ثمّ انتقلت هذه الطريقة إلى مصر عبر أبي الفتح الواسطي أواخر القرن ٦هـ/١٢م، وأنشأ رباطا له ولمريديه بالإسكندرية عرف برباط الواسطي، واستمر نشاط هذه الطريقة بمصر خلال عصر المماليك وانتسب إليها الكثير من أفراد المجتمع المصري.

٣- الطريقة السهروردية انتشرت هذه الطريقة بمصر بشكل كبير، وأصبح أتباعها يؤسّسون المدارس والربط الخاصّة بهم لنشر تعاليم طريقتهم.

٤- الطريقة الأحمدية: أسّسها السيد أحمد البدوي، الّذي ارتحل من المغرب إلى مكّة ومنها إلى مصر. لما توفي خلفه في رئاسة الطريقة تلميذه عبد العال الأنصاري.

٥- الطريقة البرهامية: أسّسها الشيخ إبراهيم الدِّسُوقي القرشي (ت:٦٧٦هـ/١٢٧٨م)، وهو مصري الأصل والمولد، وانتشرت طريقته في مصر وبقية بلدان المشرق.

غير أنّ أشهر طريقة عمّت مصر ومنها انتقلت إلى المغرب الأوسط وإن كان أصل مؤسّسها مغربي هي:

٦- الطريقة الشاذلية: وهي منسوبة لمؤسّسها الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وهو صوفي بارز الاتجاه، وأصله من شاذلة ببلاد المغرب، ووفد إلى مصر مع جملة من تلاميذه، واستوطنوا مدينة الإسكندرية حوالي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٣م وكونوا بها مدرسة صوفيّة. وكان من أشهر تلامذة أبي الحسن الشاذلي الشيخ أحمد أبي العبّاس المرسي الّذي خلفه وتولى قيادة الطريقة الشاذليّة حتّى وفاته بالإسكندريّة سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٤م، ثمّ خلفه تاج الدين بن عطاء الله السكندري المصري الّذي ألّف في مناقب شيوخه كتاب لطائف المنن.

التصوف في الشام

يعتبر التصوف ظاهرة إسلامية كباقي الطوائف الأخرى حيث يقال: إن نشاتها الأولى في فلسطين كانت على يد بعض الشيوخ في منطقة الخليل ينحدرون من عائلة القواسمي حيث كانت لهم علاقات قوية مع شيوخ الكوفة والبصرة في تلك الفترة فأخذوا منهم هذه المعتقدات ولهم عدة طرق أبرزها في فلسطين هي الطريقة (الخلوتية) وهناك أيضا الأحمدية والقادرية والشاذلية لكن أبرزها الطريقة الخلوتية.

التصوف في تركيا

كان للطرق الصوفية دور بارز في إدارة شئون الدولة وتأسيسها فكان شيوخ الطرق يعملون على نشر الإسلام وإعداد المسلمين للجهاد، وقد تقلد الصوفية مناصب كبيرة في الدولة، ومن أشهر الطرق التي كان لها دور بارز في الدولة العثمانية الطريقة البكتاشية والطريقة الرفاعية والطريقة المولوية.

وكان السلاطين العثمانيون مرتبطون بشيوخ الصوفية وبالطرق والتكايا، وكان لأهل التصوف دورهم في الدفاع عن الإسلام وكان لهم نفوذ على الهيئة الحاكمة في الدولة ورقابة سياساتها، وكان رجال التصوف يشتركون مع الجيش العثماني في فتوحاته وساهموا في تحقيق العديد من الانتصارات.

الطريقة النقشبندية:

تعد الطريقة النقشبندية أكبر الطرق الصوفية في تركيا من حيث عدد المنتسبين إليها، وينتسب معظم أهلها إلى الفرع المعروف بـــ«النقشبندية الخالدية» التي أخذت اسمها من خالد البغدادي الذي توفي في القرن الـــ١٩، ومن أبرز الجماعات المندرجة ضمن هذه الطريقة من يحسب لها أدوار اجتماعية وثقافية وسياسية فاعلة:

- السليمانيون
- جماعة إسماعيل أغا
- جماعة المنزل

- جماعة أرانكوي
- جماعة إسكندر باشا

الجماعة النورسية:

الطريقة النورسية نسبة إلى مؤسسها بديع الزمان سعيد النورسي، فقد شكّلت نوعاً من جماعات التكامل والتضامن الاجتماعي، وهي من أكثر الجماعات الصوفية الإسلامية تأثيراً على الحياة السياسية التركية، وقد تأسست على يد بديع الزمان سعيد النورسي الذي اشتغل بالتدريس في فروع ومناح علمية مختلفة، وسعى إلى إنشاء جامعة إسلامية في شرق الأناضول لخدمة الإسلام على غرار الجامع الأزهر، وتكون قادرة على تعليم الشباب العلوم الحديثة والعلوم القرآنية. ولكن مع انهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام تركيا الحديثة على يد حكومة أتاتورك ثارت الأقاليم الشرقية في الأناضول عام ١٩٢٥ ضد حكومة أتاتورك وطلب من سعيد النورسي الحرب ضد الحكومة إلا انه رفض إراقة دماء إخوانه في الإسلام، وشرع في كتابة رسائل النور التي تمحورت حول أبعاد خطر الفوضى الداخلية وتقوية أواصر المحبة بين تركيا والعالم الإسلامي، وإبعاد فكرة القومية والعنصرية.

التصوف في آسيا

ماليزيا وأندونيسيا:

لا يُعرف على وجه التحديد متى دخلت تعاليم التصوف إلى ما يعرف بماليزيا اليوم، ومع وجود اختلافات في تقدير ذلك فإن من المتفق عليه أن تاريخها يمتد لعدة قرون ماضية بفضل الدعاة المتقدمين الذين جاءوا إلى شبه جزيرة الملايو وأرخبيل (جزر ما يعرف بإندونيسيا وجوارها اليوم).

ومن أشهر هؤلاء: الشيخ عبد الله العارف الذي قدم من جزيرة العرب عام ١١٦٥م وغيره. وأبرز ٣ مصادر للتصوف في ماليزيا هي: مكة المكرمة، والهند، وإندونيسيا.

فمكة كانت مقصد طلاب العلم الملايويين وخصوصا في الفترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الميلاديين.

والتصوف في ماليزيا تأثر بمراحل تغييره على امتداد العالم الإسلامي من عهد جيل التصوف السني الأول إلى عهد تيارات التصوف الفلسفي، وما عرف عنها من انحرافات، ثم التصوف الشعبي فيما بعد سقوط بغداد.

نزعة التصوف لازمت الكثير من الدعاة العرب والهنود وغيرهم ممن جاء إلى هذه البلاد، ثم كان دور جيل العلماء الملايويين الذين تركوا لأحفادهم مؤلفات إسلامية صوفية كثيرة. مع مجيء الشيخ عبد الله العارف كان مجيء الشيخ إسماعيل ظفي الذي زار آتشيه بشمال سومطرة الإندونيسية، وعمل على الدعوة إلى الإسلام متلازما مع نشر طريقته القادرية، وكان هناك داعية عربي آخر هو عبد الله الذي زار ولاية قدح الماليزية الشمالية عام ٥٣١ هـ ناشرًا الإسلام بين سكانها خلال ٥ سنوات فقط، وتقول الحكايات بأنه هو الذي سمى الولاية بهذه الاسم بعد أن صار ملك الولاية يطيع الشيخ فيما ينصحه به، وقبره معروف بالولاية.

ومن هؤلاء الدعاة الأوائل الشيخ أبو عبد الله مسعود بن عبد الله الجاوي الذي ذكره الشيخ يوسف النبهاني قائلا بأن «الشيخ الجاوي عالم مشهور كان له تلاميذ كثيرون في عدن»، وقد توفي في سنة ٧٦٨ هـ، وكان معاصرًا لابن بطوطة، وعاش في مملكة باساي الإسلامية الشهيرة بسومطرا، وهكذا جمع الجاوي بين تأثيره بين العرب والملايويين في آن واحد، لكن مؤلفاته اختفت اليوم.

وفي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) اشتهرت في جزيرة جاوا الإندونيسية الواقعة جنوب شبه جزيرة الملايو قصة الأولياء التسعة الذين كانوا من أوائل الدعاة الذين نشروا الإسلام بين أهالي الجزيرة وأخرجوا سكانها من الهندوسية والبوذية والوثنية، وكانوا يعملون كفريق دعوي، ويسمى رئيسهم الولي، وكان عندما يتوفى أحدهم يرشحون داعية آخر مكانه حتى يظل العدد هو ٩ دعاة.

برزت أسماء مشهورة في تاريخ مسلمي جنوب شرق آسيا مثل شمس الدين باساي الذي كان يتبع الجنيد البغدادي، وحمزة الفنصوري الذي يُعد أشهر علماء الصوفية في العالم الملايوي، ويتحدث عنه بإسهاب، فيما تركه من آثار ومؤلفات كثيرة؛ ولأنه كان في

٣٠ ـــــــ

مصطلحات علم التصوف

إن لكل فن من الفنون أو علم من العلوم مثل الفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والجبر والفلسفة اصطلاحات خاصة به، لا يعلمها إلا أرباب ذلك العلم، ومن قرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته، أو يطلع على رموزه وإشاراته، فإنه يؤول الكلام تأويلات شتى مغايرة لما يقصده العلماء، ومناقضة لما يريده الكاتبون فيتيه ويضل.

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم، حين عجزت اللغة عن ذلك. فلابد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم، ويتعرف على إشاراتهم ومصطلحاتهم.

قال بعض الصوفية: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا. وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: سمعت سيدي علياً الخواص يقول: إياك أن تعتقد يا أخي إذا طالعت كتب القوم، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم أنك صرت صوفياً، إنما التصوف التخلق بأخلاقهم، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلّوْا بها من الكتاب والسنة[١].

وإن كلام الصوفية في تحذير من لا يفهم كلامهم ولا يعرف اصطلاحاتهم من قراءة كتبهم ليس من قبيل كتم العلم، ولكن خوفاً من أن يفهم الناس من كتبهم غير ما يقصدون، وخشية أن يؤولوا كلامهم على غير حقيقته، فيقعوا في الإنكار والاعتراض، شأن من يجهل علماً من العلوم. لأن المطلوب من المؤمن أن يخاطب الناس بما يناسبهم من الكلام وما يتفق مع مستواهم في العلم والفهم والاستعداد[٢].

---

(١) انظر: اليواقيت والجواهر ٢٢/١.

(٢) لهذا أفرد البخاري في صحيحه باباً في ذلك فقال: "باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا"، وقال علي بن أبي طالب: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذّبَ الله ورسولهُ؟)، صحيح البخاري (٥٩/١، رقم١٢٧).

٣٢ ـــــــ

مصادر المصطلح الصوفي

بالنسبة لمصادر المصطلحات الصوفية ومرجعياتها الاشتقاقية فهي عديدة تتمثل: في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلوم اللغة وعلوم الشريعة وعلم الكلام والفلسفة والآداب والعلوم التجريبية والعلوم الحقة.

١- من المصطلحات التي أخذت من القرآن الكريم: الذكر، والسر، والقلب، والتجلي، والاستمتاع، والاستقامة، والاستواء، والاصطناع، والاصطفاء، والإخلاص، والرياء، والرضى، والخلق، والعلم، والنفس المطمئنة، والسكينة، والتوبة، والدعوة، واليقين، والله، والنور، والحق...

٢- من المصطلحات التي أخذت من الحديث النبوي الشريف: الجلال، والخضر، والخوف، وأهل الذكر، والرداء، والأبدال، والأوتاد، والغوث، والنجباء، والنقباء...

٣- من المصطلحات التي أخذت من النحو: الغياب، والحضور، والمعرفة، والاسم، والحال، والمعرفة، والرسم، والعلة، والصفة، والشاهد، والإشارة، والواحد، والجمع، والوصل والفصل...

٤- من المصطلحات التي أخذت من علم الكلام: التوحيد، والعقل، والعدل، والعرض، والجوهر، والذات، والصورة، والتنزيه، والقديم، والثبوت، والوجود، والأزل،...

٥- من المصطلحات التي أخذت من المرجعية الفلسفية: العقل، والنفس، والحس والهيولى والعقل الأول والفيض والنفس الكلية والنظر...

الزهد:

قال الجنيد: الزهد هو خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع.

الأنس:

سئل الجنيد عن الأنس، فقال: الأنس هو ارتفاع الحشمة -أي: أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف- مع وجود الهيبة. وقيل: هو انبساط المحب إلى المحبوب وفرحه به.

الاتصال:

أي أن ينفصل بسره عما سوى الله، فلا يَرَى بسره - بمعنى التعظيم - غيرَه، ولا يسمع إلا منه.

٣٤ ـــــــ

أو إجلال، أو حياء، أو بعض هذه الأحوال. ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه في الحال: أمكن وأتم حالة؛ كما كان أبو بكر الصديق.

السكر والصحوة:

السكر: أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء. وهو أن لا يميز بين مرافقة وملاذه، وبين أضدادها في مرافقة الحق؛ فإن غلبات وجود الحقِّ تُسْقِطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه، كما روي في بعض الروايات في حديث حارثة، أنه قال: «استوى عندي حجرها ومدرها، وذهبها وفضتها»، وكما قال عبد الله بن مسعود: «ما أبالي على أي الحالين وقعت: على غنى، أو فقر؛ إن كان فقرًا فإن فيه الصبر، وإن كان غنى فإن فيه الشكر»، ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضده، وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر والشكر.

والصحو الذي هو عقيب السكر: هو أن يميز، فيعرف المؤلم من الملذ، فيختار المؤلم في موافقة الحق ولا يشهد الألم، بل يجد لذة في المؤلم. كما جاء عن بعض الكبار أنه قال: لو قطعني البلاء إرَباً إرَباً، ما ازددت لك إلا حُبّاً حُبّاً. وهذه الحالة أتم؛ لأن صاحب السكر يقع على المكروه من حيث لا يدري، ويغيب عن وجود التكره. وهذا يختار الآلام على الملاذ، ثم يجد اللذة فيما يؤلمه بغلبة شهود فاعله. والصاحي الذي نعته قبل نعت السكر: ربما يختار الآلام على الملاذ لرؤية ثواب، أو مطالعة عوض، وهو متألم في الآلام ومتلذذ في الملاذ، فهو نعت الصحو والسكر.

الغيبة والشهود:

الغَيْبَة: أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها، وهي — أي الحظوظ – قائمة معه، موجودة فيه، غير أنه غائب عنها بشهود ما للحق؛ كما قال أبو سليمان الداراني – وبلغه أنه قيل للأوزاعي: رأينا جاريتك الزرقاء في السوق فقال: أو زرقاء هي؟ – فقال سليمان: «انفتحت عيون قلوبهم، وانطبقت عيون رؤوسهم»، أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذة الحور فيه؛ بقوله أو زرقاء هي؟

٣٦ ـــــــ

معنى قوله «تجلي ذات وهي المكاشفة»: كشوف القلب في الدنيا؛ كما في الحديث: «**اعبد الله كأنك تراه**»[١]. وكشوف العيان في الآخرة.

ومعنى قوله «تجلي صفات الذات وهي موضع النور»: هو أن تتجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره، وكفايته له فلا يرجو سواه، وكذلك جميع الصفات؛ كما قال حارثة: «**كأني أنظر إلى عرش ربي بارزا**»[٢]، كأنه تجلى له كلامه في أخباره، فصار الخبر له كالمعاينة.

و«تجلي حكم الذات»: يكون في الآخرة: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

والاستتار الذي يعقب التجلي: هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشاهدها، كقول عبد الله بن عمر – للذي سلم عليه وهو في الطواف فلم يرد عليه فشكاه – فقال: إنا كنا نتراءى الله في ذلك المكان؛ أخبر عن تجلي الحق له بقوله: « كنا نتراءى الله »، وأخبر عن الاستتار بغيبته عن التسليم عليه.

الفناء والبقاء:

الفناء: هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز؛ فناءً عن الأشياء كلها شغلا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة رأيت أم حائطًا، والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظًا فيما لله عليه، مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل (وهو: العصمة)، وذلك معنى الحديث: « **كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ** »[٣].

والبقاء الذي يعقبه: هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله. قال بعض الكبار: البقاء مقام النبيين، ألبسوا السكينة، لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه، ولا عن فضله؛ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٥٤].

---

(١) أخرجه البخارى (٢٧/١، رقم ٥٠)، ومسلم (٣٩/١، رقم ٩)، وابن ماجه (٢٥/١، رقم ٦٤).

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٦٢/٧، رقم ١٠٥٩٠).

(٣) أخرجه البخارى (٢٣٨٤/٥، رقم ٦١٣٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٥٨/٢، رقم ٣٤٧)، والبيهقى (٢١٩/١٠، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/١).

والباقي: هو أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات. وليس معنى « أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا »: أن تصير المخالفات له موافقات، فيكون ما نهى عنه كما أمر به! ولكن على معنى أن لا يجري عليه إلا ما أمر به، وما يرضاه الله تعالى دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه في عاجل أو آجل، وهذا معنى قولهم: «يكون فانيًا عن أوصافه باقيا بأوصاف الحق »؛ لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لأنه لا يَجُرُّ به نفعا ولا يدفع به ضرا – تعالى الله عن ذلك –، وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم. فالباقي بالحق: الفاني عن نفسه: يفعل الأشياء لا لِجَرِّ منفعة إلى نفسه، ولا لدفع مضرة عنها، بل على معنى أنه لا يقصد في فعله جَرّ المنفعة ودفع المضرة؛ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها (بمعنى: القصد والنية)، ولا بمعنى أنه لا يجد حظاً فيما يعمل مما لله عليه، يفعله لله، لا لِطَمَع ثواب، ولا لخوف عقاب، وهما – أعني: الخوف والطمع – باقيان معه، قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى؛ لأنه رغّب فيه، وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه، ويخاف عقابه إجلالا له، وموافقة له؛ لأنه خَوَّفَ عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه، كما قيل: المؤمن يأكل بشهوة عياله. فجملة الفناء والبقاء: أن يفنى عن حظوظه، ويبقى بحظوظ غيره.

المريد والمراد:

المُرِيْد: مُرَادٌ في الحقيقة، والمُرَادُ: مُرِيْد؛ لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله تقدمت له؛ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له؛ إذ علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد، فجعل المريد مرادًا، والمراد مريدًا، غير أن المريد: هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد: هو الذي سبق كشوفه اجتهاده. فالمريد: هو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت٦٩]، وهو الذي يريده الله تعالى فيقبل بقلبه، ويحدث فيه لطفا يثير منه فيه: الاجتهاد فيه، والإقبال عليه، والإرادة له، ثم يكاشفه الأحوال؛ كما قال حارثة: «عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، ثم

قال: وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا »، فأخبر: أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا.

والمراد: هو الذي يجذبه الحق جذبه القدرة، ويكاشفه بالأحوال، فيثير قوة الشهود منه اجتهادًا فيه، وإقبالا عليه، وتحملا لأثقاله؛ كسحرة فرعون لما كوشفوا بالحال في الوقت، سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢].

الأبد:

هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، مدة لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل ألبتة؛ وهو الشيء الذي لا نهاية له.

الاتحاد:

هو تصيير الذاتين واحدة، ولا يكون إلا في العدد من الاثنين فصاعداً، في الجنس: يسمى: مجانسة، وفي النوع: مماثلةً، وفي الخاصة: مشاكلة، وفي الكم: مساواة، وفي الأطراف: مطابقة، وفي الإضافة: مناسبة، وفي وضع الأجزاء: موازنة، وهو شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به، معدوماً بنفسه، لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به، فإنه محال. وقيل: الاتحاد: امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى صيرا شيئاً واحداً، لاتصال نهايات الاتحاد. وقيل: الاتحاد، وهو لقول من غير رؤية وفكر.

أحد:

أحد هو اسم الذات مع اعتبار تعدد الصفات، والأسماء والغيب والتعينات الأحدية اعتبارها من حيث هي بلا إسقاطها ولا إثباتها، بحيث يندرج فيها لسبب الخطرة الواحدة.

أحدية الجمع:

معناه لا تنافي الكثرة أحدية الغبن هي من حيث اغناؤه عنا وعن الأسماء، ويسمى هذا جمع الجمع.

أحدية الكثرة:

معناه واحد يتعقل فيه كثرة نسبية، ويسمى هذا بمقام الجمع، وأحدية الجمع.

الإحسان:

هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته، فهو يراه يقيناً ولا يراه حقيقة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «كأنك تراه»، لأنه يراه من وراء حجب صفاته، فلا يرى الحقيقة بالحقيقة، لأنه الله هو الداعي، وصفة لوصفه، هو دون مقام المشاهدة في مقام الروح.

الإدراك:

إحاطة الشيء بكماله، وهو حصول الصورة عند النفس الناطقة، وتمثيل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه بنفي أو إثبات، ويسمى: تصوراً، ومع الحكم بأحدهما يسمى: تصديقاً.

الإرادة:

صفة توجب للحي حالا يقع منه الفعل على وجهٍ دون وجه، وفي الحقيقة: هي ما لا يتعلق دائماً إلا بالمعدوم، فإنها صفة تخصص أمراً لحصوله ووجوده، كما ذكر القرآن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. وميل يعقب اعتقاد النفع؛ ومطالبة القلب غذاء الروح من طيب النفس، وقيل: الإرادة حب النفس عن مراداتها، والإقبال على أوامر الله والرضا، وقيل: الإرادة: جورٌة من نار المحبة في القلب مقتضية لإجابة دواعي الحقيقة.

الإرهاص:

ما يظهر من الخوارق عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره، النور الذي كان في جبين آباء نبينا، صلى الله عليه وسلم، وإحداث أمر خارق للعادة دال على بعثة نبي قبل بعثته؛ وما يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة من أمر خارق للعادة، وقيل: إنها من قبيل الكرامات، فإن الأنبياء قبل النبوة لا يقصرون عن درجة الأولياء.

obeikandi.com

مقدمة التحقيق ـــــــ

٤٢ ـــــــ

شهود المفصل في المجمل مفصلا ليس كشهود العالم من الخلق في النواة الواحدة النخيل الكامنة فيه بالقوة، فإنه شهود المفضل في المجمل مجملا لا مفصلا، شهود المفصل في المجمل مفصلا يتصل بالحق، وبمن جاء بالحق أن يشهده من الكمل، وهو خاتم الأنبياء وخاتم الأولياء.

الإنابة:

إخراج القلب من ظلمات الشبهات. وقيل: الإنابة: الرجوع من الكل إلى من له الكل. وقيل: الإنابة: الرجوع من الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة إلى الأنس.

الإنسان الكامل:

هو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية، الكلية والجزئية وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية، فمن حيث روحه وعقله: كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه: كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه: كتاب المحو والإثبات، فهو الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية، فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه، وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير، كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان، ولذلك سمى العالم بالإنسان الكبير.

البصيرة:

قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة البصر للنفس يرى به باطن الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها الحكماء: العاقلة النظرية، والقوة القدسية.

التجلي:

ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جمع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي، فإن لكل اسم إلهي بحسب حيطه ووجوهه تجليات متنوعة، وأمهات الغيوب، التي تظهر التجليات من بطائنها: سبعة: غيب الحق وحقائقه، وغيب الخفاء المنفصل من الغيب المطلق بالتمييز الأخفى في حضرة أو أدنى، وغيب السر المنفصل من الغيب الإلهي بالتمييز الخفي

٤٤ ـــــــ

الجلوة:

خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية، إذ عين العبد وأعضاؤه ممحوة عن الأنانية، والأعضاء مضافة إلى الحق بلا عبد، كقول القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

الحال:

هي ما يبين هيئة الفاعل أو المفعول به لفظاً، نحو: ضربت زيداً قائماً، أو معنى، نحو: زيد في الدار قائماً، والحال عند أهل الحق: معنى يرد على القلب من غير تصنع، ولا اجتلاب، ولا اكتساب، من طرب، أو حزن، أو قبض، أو بسط، أو هيبة، ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه المثل أولا، فإذا دام وصار ملكاً، يسمى: مقاماً، فالأحوال واهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود.

الحجاب:

كل ما يستر مطل بك، وهو عند أهل الحق: انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحق.

وحجاب الغرة: هو العمى والحيرة؛ إذ لا تأثير للإدراكات الكشفية في كنه الذات، فعدم نفوذها فيه حجاب لا يرتفع في حق الغير أبداً.

حد:

قول دال على ماهية الشيء، وعند أهل الله: الفصل بينك وبين مولاك، كتعبدك وانحصارك في الزمان والمكان المحدودين.

الحدس:

سرعة انتقال الذهن من المبادي إلى المطالب، ويقابله الفكر، وهو أدنى مراتب الكشف.

الحق:

اسم من أسماء الله، والشيء الحق، أي الثابت حقيقة، ويستعمل في الصدق والصواب أيضاً، يقال: قول حق وصواب.

obeikandl.com

وفي اللغة: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره.

وفي اصطلاح أهل المعاني: هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل.

وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصة، ويقابله الكذب، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم، فمعنى صدق الحكم مطابقة للواقع، ومعنى حقيقته مطابقة الواقع إياه.

الحضرات الخمس الإلهية:

حضرة الغيب المطلق: وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، وفي مقابلتها.

حضرة الشهادة المطلقة: وعالمها عالم الملك.

حضرة الغيب المضاف: وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب منه الغيب المطلق، وعالمه عالم الأرواح الجبروتية.

حضرة الملكوتية: أعني عالم العقول والنفوس المجردة، إلى ما يكون أقرب من الشهادة المطلقة، وعالمها عالم المثال، ويسمى بعالم الملكوت.

الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة: وعالمها عالم الإنسان الجامع لجميع العوالم وما فيها، فعالم الملك مظهر عالم الملكوت، وهو عالم المثال المطلق، وهو مظهر عالم الجبروت، أي عالم المجردات، وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة وهو مظهر الأسماء الإلهية والحضرة الواحدية، وهي مظهر الحضرة الأحدية.

حقائق الأسماء:

هي تعينات الذات ونسبها، إلا أنها صفات يميزها الإنسان بعضها عن بعض.

obeikandi.com

طرق الصوفية

الطرق الصوفية: هي مدارس في التزكية والتربية متفرعة من بعضها ومرتبطة بواسطة السند المتصل، وهي ليست فرقاً إسلامية، وجميعها تتبنى عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية، وتتبع أحد المذاهب الأربعة السنية. والاختلاف بينها إنما هو في طريقة التربية والسلوك إلى الله.

الطريق لغة: هي السيرة، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة.

واصطلاحًا: اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه، فيقال الطريقة الشاذلية والقادرية والرفاعية نسبة لرجالاتها. واسم الطريقة مقتبس من القرآن في الآية: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

اختلاف الطرق:

تختلف الطرق التي يتبعها مشايخ الطرق في تربية طلابها ومريديها باختلاف مشاربهم واختلاف البيئة الاجتماعية التي يظهرون فيها، وكل هذه الأساليب لا تخرج عن كتاب الله وسنة رسوله، بل هي من باب الاجتهاد المفتوح للأمة. ولذلك قيل: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق:

- فقد يسلك بعض المشايخ طريق الشدة في تربية المريدين فيأخذونهم بالرياضات العنيفة ومنها كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والفكر.

- وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في تربية المريدين فيأمرونهم بممارسة شيء من الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر، ولكن لا يلزمونهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلا.

- ومن المشايخ من يتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين في تربية المريدين.

obeikandl.com

وللطرق الصوفية شارات وبيارق وألوان يتميزون بها: فيتميز السادة الرفاعية باللون الأسود. ويتميز السادة القادرية باللون الأخضر. ويتميز السادة الأحمدية باللون الأحمر. أما السادة البرهانية فإنها لا تتميز بلون واحد كسائر الطرق بل تتميز بثلاث ألوان: الأبيض الذي تميز به السيد إبراهيم الدسوقي، والأصفر الذي تميز به الإمام أبو الحسن الشاذلي ومنحه لابن أخته السيد إبراهيم الدسوقى، والأخضر وهو كناية عن شرف الانتساب لأهل بيت رسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

بداية ظهور الطرق الصوفية:

ويرجع أصل الطرق الصوفية إلى عهد رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يخصّ كل من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله:

- أما الصحابي علي بن أبي طالب، فقد أخذ من النبى الذكر بالنفى والإثبات وهو (لا إله إلا الله).

- وأما الصحابي أبو بكر الصديق، فقد أخذ عنه الذكر بالاسم المفرد (الله).

ثم أخذ عنهما من التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية. ثم نقلت الطريقتين حتى إلتقتا عند الإمام أبوالقاسم الجنيد. ثم تفرعتا إلى الخلوتية، والنقشبندية. واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة: السيد أحمد الرفاعى، والسيد عبد القادر الجيلانى، والسيد أحمد البدوي، والسيد إبراهيم القرشى الدسوقى، وشيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة، وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم. وتوجد اليوم طرق عديدة جدًا في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة. إضافة إلى أوراد السيد أبو الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية والتي تعتبر أوراده جزءًا من أوراد أى طريقة موجودة اليوم.

obeikandi.com

أهم الطرق الصوفية

الطريقة القادرية:

نسبة إلى عبد القادر الجيلاني (٤٧١ هـ - ٥٦١هـ)، وينتشر أتباعها اليوم في بلاد الشام والعراق ومصر وشرق أفريقيا والسودان. وقد كان لرجالها الأثر الكبير في نشر الإسلام في قارة أفريقيا وآسيا، وفي الوقوف في وجه المد الأوروبي الزاحف إلى المغرب العربي.

الطريقة القادرية البوتشيشية:

نسبة إلى سيدي علي بن محمد الذي حمل لقب «سيدي علي بودشيش» لكونه كان يطعم الناس - أيام المجاعة - طعام «الدشيشة» بزاويته. وتنتشر هذه الطريقة في الجزائر والمغرب.

الطريقة القادرية العركية:

نسبة إلى عبد الله العركي المولود في القرن العاشر الهجرى ٩٢٣ هـ والمتوفى عام ١٠١٩ هـ فقيه الحرمين وأستاذ المذهب المالكي في الحرم المكي الشريف. وهي من أكبر الطرق الصوفية في السودان ومقرها في مدينتي أبو حراز وطيبة الشيخ عبد الباقي في ولاية الجزيرة بالسودان ويمثلها آل بيت رسول الله من السادة الأشراف العركية.

الطريقة الرفاعية:

نسبة إلى أبي العباس أحمد بن علي الرفاعي ويطلق عليها البطائحية نسبة إلى مكان ولاية بالقرب من قرى البطائح بالعراق.

الطريقة المعينية:

نسبة إلى الشيخ ماء العينين وهي منتشرة في المغرب وموريتانيا والسنغال والسودان، وكان لهذه الطريقة الدور الكبير في انتشار الاسلام في ربوع أفريقيا والوقوف أمام المد الإنجليزي والفرنسي والأسباني بالمغرب وموريتانيا حيث استنفر الشيخ ماء العينين الناس للجهاد.

obeikandl.com

الطريقة الأحمدية أو البدوية:

نسبة إلى أحمد البدوي والذي يمسى «شيخ العرب» ٦٣٤هـ ولد بفاس، حج ورحل إلى العراق، واستقر في طنطا حتى وفاته. وأتباع طريقته منتشرون في بعض محافظات مصر، ولهم فيها فروع كالبيومية والشناوية وأولاد نوح والشعبية وآل رمضان وهم المعتدلون السنيون الأحمديون نسبة لشيخهم محمد عبد الهادي رمضان، والشيخ شعبان أحمد رمضان ومقرهم بمركز شبراخيت محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية وهم ينتسبون لآل بيت رسول الله، فهم أولاد السبط الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم.

وشعارهم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وذكرهم: كلمة التوحيد، والدعاء، والصلاة علي النبي محمد صلي الله عليه وسلم.

وانتشرت طريقته من مصر إلى أقطار العالم الإسلامي مثل تركيا وليبيا والسودان وغيرها من الدول العربية والأوربية والاسيوية.

الطريقة الدسوقية:

نسبة إلى إبراهيم الدسوقي ٦٧٦هـ المدفون بمدينة دسوق في مصر.

الطريقة الأكبرية:

نسبة إلى الشيخ محيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر ٦٣٨هـ، وتقوم طريقته على عقيدة التوحيد والصمت والعزلة والجوع والسهر، ولها ثلاث صفات:

١- الصبر على البلاء.

٢- الشكر على الرخاء

٣- الرضا بالقضاء.

الطريقة الشاذلية:

نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي، يشتهر أتباعها بالذكر المفرد الله والضمير العائد على الله هو، ويفضلون اكتساب العلوم عن طريق الذوق وهو تلقي الأرواح للأسرار الطاهرة في الكرامات وخوارق العادات، كذلك معرفة الله معرفة يقينية، ولا يحصل ذلك إلا عن طريق

مقدمة التحقيق ـــــــ

٥٢ ـــــــ

وإيطاليا وإسبانيا والمملكة المتحدة وألمانيا وبلجيكا والنمسا وسويسرا وروسيا والصين وأندونيسيا وماليزيا.

الطريقه الختمية:

نسبة إلى محمد عثمان الميرغنى الختم وهي أسرة من أشراف مكة أرخ لها مرتضى الزبيدي والجبرتي في تاريخه وأحمد بن إدريس في الإبانة النورية وغيرهم، وتلقى السيد محمد عثمان علومه الدينية بمكة على يد علمائها، وعلى رأسهم السيد محمد يس إمام الحرم في حينها ومفتي الحجاز ثم تتلمذ على يد السيد الشريف أحمد بن إدريس حتى أسس طريقته المعروفة بالختمية.

وهي من أهم الطرق الصوفيه بمصر والسودان وتنتشر هذه الطريقه شرق القاره الإفريقيه وغربها وأوسطها وشمالها. يرجع الفضل لهذه الطريقه في إدخال معظم أهل السودان وإريتريا إلى الإسلام كما يتبعها أهالي النيجر والجزائر والمغرب هذه الطريقه.

obeikandl.com

الإمام الغزالي
ورحلة البحث عن الحقيقة
(٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م - ١١١١م)

اسمه ونسبه:

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري، الملقب بحجة الإسلام، وزين الدين، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أهم أعلام عصره، وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

ولادته:

ولد أبو حامد الغزالي في قرية «غزالة» القريبة من طوس من إقليم خراسان عام (٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨م)، وإليها يُنسب.

نشأته:

نشأ في بيت فقير من عائلة خراسانية، فقد كان والده رجلا زاهداً ومتصوفاً لا يملك غير حرفته، ولكن كانت لديه رغبة شديدة في تعليم ولديه محمد وأحمد، وحينما حضرته الوفاة عهد إلى صديق له متصوف برعاية ولديه، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما، فاجتهد الرجل في تنفيذ وصية الأب على خير وجه حتى نفد ما تركه لهما أبوهما من المال، وتعذر عليه القيام برعايتهما والإنفاق عليهما، فألحقهما بإحدى المدارس التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، والتي كانت تكفل طلاب العلم فيها.

تلقيه العلم:

ابتدأ طلبه للعلم في صباه، فأخذ الفقه في طوس، ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين الجويني في نيسابور، فأخذ عنه جملة من العلوم في الفقه وأصوله وعلم الكلام والمنطق، وفي هذه الفترة ألف الغزالي كتابه «المنخول» وعرضه على شيخه الجويني، فأعجب به قائلا: «دفنتني وأنا حي! هلا صبرت حتى أموت؟!». واجتهد الغزالي في طلب العلم حتى تخرج في مدة قريبة وصار أفضل أهل زمانه وأوحد أقرانه.

openkanal.com

شيوخه:

درس الغزالي على عدد من العلماء والأعلام، منهم:

١- أحمد الرازكاني، أخذ عنه الفقه في طوس.

٢- أبو نصر الإسماعيلي.

٣- أبو المعالي الجويني، أخذ عنه الفقه وأصوله وعلم الكلام والمنطق والفلسفة.

٤- الفضل بن محمد الفارمذي، تلميذ أبو القاسم القشيري، والذي اشتهر في زمانه حتى صار مقصد طالبي التصوف، وقد أخذ عنه الغزالي التصوف.

٥- الشيخ يوسف النساج، وقد أخذ عنه التصوف.

تلاميذه:

١- أبو منصور ابن الرزاز.

٢- أبو عبد الله الجيلي.

٣- الباربابذي.

٤- أبو الفتح الباقرجي.

٥- أبو العباس الأقليشي.

٦- أبو بكر بن العربي.

٧- عبد القادر الجيلاني.

حياته:

جلس الغزالي للإقراء وإرشاد الطلبة وتأليف الكتب في أيام إمامه الجويني، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه. ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيماً لعلو درجته وحسن مناظرته، وكان مجلس نظام الملك محطاً لرحال العلماء، ومقصد الأئمة والفضلاء، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول، فظهر اسمه وطار صيته، فأشار عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بالتدريس في المدرسة النظامية، فسار إليها سنة (٤٨٤هـ) وأعجب الكل بتدريسه ومناظرته وحضره الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب، وتعجبوا من كلامه ونقلوه في

obeikandi.com

مصنفاتهم، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة.

رحلة البحث عن الحقيقة:

مرّ الغزالي في حياته بمرحلة شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني (وهذه الحالة هي التي تسمى فترة الشك وهي غير الأزمة الروحانية التي أدت بالغزالي إلى ترك بغداد؛ وهي الأزمة الأولى وهي بطابعها غير روحانية وإنما هي معرفية) ودخل في مرحلة من السفسطة الغير منطقية حتى شفاه الله منها بعد مدة شهرين تقريبًا، حيث يقول عن نفسه: «فلما خطرت لي هذه الخواطر – خواطر الشك في المحسوسات والمعقولات – وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، و لم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين؛ و لم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف»[1].

ويتابع الغزالي قائلا عن نفسه: ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١- المتكلمون: وهم يدّعون أنـــهم أهل الرأي والنظر.

٢- الباطنية: وهم يزعمون أنـــهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣- الفلاسفة: وهم يزعمون أنـــهم أهل المنطق والبرهان.

٤- الصوفية: وهم يدعون أنـــهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ٨/١.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع... فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق، مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية.

١- المتكلمون:

بدأ الغزالي في تحصيل علم الكلام وطالع كتب المحققين منهم، حتى عقله وفهمه حق الفهم، بل وصنف فيه عدة من الكتب التي أصبحت مرجعا في علم الكلام فيما بعد مثل كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد».

ولقد قال الغزالي عن علم الكلام: أنه حفظ العقيدة من الشكوك التي تثار حولها والطعون التي توجه إليها. أما أن يخلق علم الكلام عقيدة الإسلام في إنسان نشأ خاليا عنها غير مؤمن بها، فهذا ما لم يحاوله علم الكلام، وما لم يكن في مهمته، وقد قضت عليه مهمته تلك أن يأخذ مقدماته من هؤلاء الطاعنين المشككين ليؤاخذهم بلوازم مسلماتهم، وهي مقدمات واهية ضعيفة قال: وكان أكثر خوضهم (يقصد علم الكلام) في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم.

هذا هو مقصود علم الكلام؛ أما مقصود الغزالي فهو إدراك الحقيقة الدينية إداركا يقينيا عن مكاشفة ودقة ووضوح؛ لهذا يقول الغزالي مشيرا إلى علم الكلام: فلم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا[1].

لم يجد الغزالي ضآلته المنشودة في علم الكلام، ورآه غير واف بمقصوده، إذن لم يكن علم الكلام مقنعا للغزالي فظل يبحث عن الحقيقة انتقل إلى الصنف الثاني من طالبين الحقيقة وهم الفلاسفة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/١١.

٢- الفلاسفة:

تناول الغزالي بحوث الفلاسفة التي تعرضوا فيها لموضوعات العقيدة، عله يجد لديهم من فنون المحاولات العقلية ما يقطع بصحة ما ذهبوا إليه بشأنها، فوجدهم قد اختلفوا فيها اختلافا كبيرا، وسرعان ما أدرك الغزالي أن مزاولة العقل لهذه المهمة إقحام له فيما لا طاقة له به، وأن أسلوب العقل في تفهم الأمور الرياضية لا يمكن أن تخضع له المسائل الإلهية. فألف الغزالي في نقدهم وتفنيد آرائهم كتبا أهمها كتاب «تهافت الفلاسفة».

لذلك خرج الغزالي بهذه النتيجة: فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً؛ وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه[1].

فكذلك لم يجد الغزالي ضآلته في الفلسفة ورآها غير جديرة بما يمنحها الناس من ثقة، فاتجه إلى ثالث فرقة من أصناف الباحثين عن الحق وهي الباطنية أو التعليمية.

٣- الباطنية:

في عهد الخليفة العباسي المستظهر برزت فرقة تسمى الباطنية، وكانت ترى أنه يجب تأويل القرآن والبحث في باطنه وعدم قبول ظاهره فقد كانوا يؤمنون بالمعاني الباطنة. وإن لهذه الفرقة أفكار ضآلة وملحدة حتى أنها كانت تهدف إلى التشكيك في أركان الشريعة فمثلا يقولون: ما الهدف من رمي الحجارة؟ وما الداعي للسعي بين الصفا والمروة؟ إذن كانت فرقة ملحدة تكفيرية خطيرة أحس الخليفة العباسي بخطرها فطلب من الغزالي أن يؤلف كتاب يقوم فيه بالرد عليهم. فتمعن الغزالي بأفكارهم وتعمق بها وكتب كتاب «فضائح الباطنية»، فانتقدهم في كتابه وتأثر بكتب من سبقوه في نقد هذه الفرقة.

يقول الباطنية: إن العقل لا يؤمن عليه الغلط، فلا يصح أخذ حقائق الدين عنه. وإلى هذا الحكم انتهى الغزالي عند امتحانه للفلاسفة، فهم إذن في هذه النقطة متفقون. عماذا إذن يأخذون قضايا الدين في ثوبها اليقيني؟! يأخذونها عن الإمام المعصوم الذي يتلقى عن

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/١٤.

الله بواسطة النبي. أحبب بهذا الإمام وبما يأتي عن طريقه. ولكن أين ذلك الإمام، فتش عنه الغزالي طويلا فلم يجده، وتبين أنهم فيه مخدوعون، وأن هذا الإمام لا حقيقة له في الأعيان، فعاد أدراجه وكرّ راجعا، بعد ما ألف كتبا ضدهم أوجعهم فيها نقدًا وتفنيدًا كما يقول: فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً.

وأيضا لم يجد الغزالي ضآلته عند الباطنية، ورآهم غارقين في حيرة، فوصل أخيرا عند الصوفية، وعندها ابتدأ اعتزاله عن الناس وسفره.

٤- الصوفية:

عندما فرغ الغزالي من هذه العلوم، أقبل بهمته على طريق الصوفية، وبما أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنـــزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بـــها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله. ابتدأ الغزالي بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل:

١- «قوت القلوب» لأبي طالب المكي.

٢- كتب الحارث المحاسبي.

٣- المتفرقات المأثورة عن الجنيد.

٤- المتفرقات المأثورة عن الشبلي.

٥- المتفرقات المأثورة عن أبي يزيد البسطامي.

وبعد أن اطلع الغزالي على كنه مقاصدهم العلمية، وحصل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر له أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. فيقول عن نفسه: فعلمت يقيناً أنـــهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصّلته، و لم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك[1].

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/٣٠.

عند ذلك لاحظ الغزالي على نفسه انغماسه في العلائق وأنه في تدريسه وتعليمه مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ونيته غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت. فلم يزل يتفكر مدة، حتى صمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، ويحل العزم يوماً، ويقدم فيه رجلا ويؤخر عنه أخرى.

يقول الغزالي عن نفسه: فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة (٤٨٨ هـ). وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة...ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً.

ثم دخل الشام، وأقام به قريباً من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة؛ والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتـــهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كان يحصله من كتب الصوفية. فكان يعتكف مدة في مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طول النهار، ويغلق بابـــها على نفسه. ثم رحل منها إلى بيت المقدس، يدخل كل يوم الصخرة، ويغلق بابـــها على نفسه. ثم يتابع الغزالي رحلته وخلوته ويقول عن نفسه: ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة. وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه؛ فسرت إلى الحجاز.

ودام الغزالي في خلوته مقدار عشر سنين؛ ليصل إلى نتيجة وهي في قوله: إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه. ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه[1].

وخلال فترة اعتزاله ألف الغزالي كتابه «إحياء علوم الدين» والذي ابتدأ تأليفه في القدس ثم أتمه بدمشق، وهو يمثل تجربته التي عاشها في تلك الفترة. ويعتبر كتاب «الإحياء» أحد أهم كتبه التي ألفها، وأحد أهم وأشمل الكتب في علم التصوف. حتى أنه قيل عنه: من لم يقرأ «الإحياء» فليس من الأحياء. كما وألف كتابه «المنقذ من الضلال» كتب فيه قصة اعتزاله وعودته.

اتسم منهج الامام الغزالي بعد مسيرته الصوفية بشيء من الوسطية ووقف بآرائة ضد العصبية الدينية والافكار التكفيرية، حيث ارجع ابتعاد الناس عن طريق الحق والتدين متمثل

(١) انظر: المنقذ من الضلال ٣٤/١.

في طريقة الدعوة التي تباناها أشخاص يزكون أنفسم بإظهار فساد غيرهم وان لم يكن فاسد، وإخراج الدين عن منهج الفطرة الذي اتسم به منذ بداية الدعوة، فكانت من حكمة الشهيرة في كتاب «إحياء علوم الدين» قوله: « إن انتشار الكفر في العالم يحمل نصف أوزاره متدينون بغضوا الله إلى خلقه بسوء صنيعهم وسوء كلامهم». كانت تختصر هذه الحكمة منهجًا قد ساد في زمن الامام الغزالي، تمثل بتشويه أفراد متعصبين دينيًا لأسس الدعوة الإسلامية أو أسس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بغضهم الناس وبغضوا ما اقترن فيهم من تدين، أي أنهم بغضو الدين لأجل هؤلاء الأفراد.

عودته إلى بلده:

يقول الغزالي عن نفسه: لما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بـــهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم – أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء–، انقدح في نفسي أن ذلك –الرجوع إلى بلده – متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغني الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟... فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية؛ وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المائة؛ فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظنّ بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة. ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة، سنة تسع وتسعين وأربع مائة (٤٩٩ هـــ). وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة (٤٨٨ هـــ). وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة. وهذه حركة قدّرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد، والنـــزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلا بالبال؛ والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابعِ الرحمن».

وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت! فإن الرجوع عَودٌ إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي. وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويعرف بـــه سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي؛ يعلم الله ذلك مني؛ وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصِل مرادي أم أُحترم دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم؛ وأني لم أتحرك، لكنه حركني؛ وإني لم أعمل، لكنه استعملني؛ فأسأله أن يصلحني أولا، ثم يُصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي؛ وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلا، ويرزقني اجتنابه[1].

عاد الغزالي إذن إلى وطنه طوس لازماً بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى، والاستعداد للدار الآخرة مرشد الضالين ومفيد الطالبين، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف. فلما صارت الوزارة إلى فخر الملك أحضره وسمع كلامه وألزمه بالخروج إلى نيسابور، فخرج ودرس ثم عاد إلى وطنه واتخذ في جواره مدرسة ورباطًا للصوفية وبنى دارًا حسنة وغرس فيها بستانًا وتشاغل بالقران وسمع الصحاح.

مؤلفاته:

ألّف الإمام الغزالي خلال مدة حياته (٥٥ سنة) الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم، حتى أنه قيل: إن تصانيفه لو وزعت على أيام عمره أصاب كل يوم كتاب. حيث بلغت (٤٥٧) مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، كثير منها لا يزال مخطوطًا، ومعظمها مفقود. ومن هذه الكتب:

أولا: في العقيدة وعلم الكلام والفلسفة:

١- مقاصد الفلاسفة.

٢- تهافت الفلاسفة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ٤٢/١.

٣- الاقتصاد في الاعتقاد.

٤- بغية المريد في مسائل التوحيد.

٥- إلجام العوام عن علم الكلام.

٦- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.

٧- فضائح الباطنية.

٨- القسطاس المستقيم (الرد على الإسماعيلية).

٩- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

ثانيًا: في الفقه وأصوله والمنطق:

١- المستصفى في علم أصول الفقه.

٢- المنخول في تعليقات الأصول.

٣- الوسيط في فقه الإمام الشافعي.

٤- الوجيز في فقه الإمام الشافعي.

٥- معيار العلم في المنطق.

٦- محك النظر (منطق).

ثالثًا: في التصوف:

١- إحياء علوم الدين.

٢- بداية الهداية.

٣- المنقذ من الضلال.

٤- روضة الطالبين وعمدة السالكين.

٥- الأربعين في أصول الدين.

٦- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين.

٧- معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

٨- الدعوات المستجابه ومفاتيح الفرج.

٩- مدخل السلوك الي منازل الملوك.

obeikandl.com

١٠- أصناف المغرورين.

١١- مشكاة الأنوار.

١٢- ميزان العمل.

١٣- أيها الولد المحب: من الكتب المشهورة والذائعة الصيت خاصة بين أهل الذوق الصوفي. وهي عبارة عن مجموعة من النصائح والإرشادات وجهها الغزالي لأحد تلامذته لتكون دستورًا ومنهجًا وطريقة له في حياته.

وفيها يبين الطريقة السليمة لتربية أولاد المسلمين، ويحدد العلوم التي ينبغي أن يتعلمها التلميذ، والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المدرس، وكيف تكون العلاقة بينهما.

١٤- كيمياء السعادة (في الفارسية: كيمياي سعادت).

١٥- سر العالمين وكشف ما في الدارين.

١٦- مكاشفه القلوب إلي حضره علام الغيوب.

رابعًا: متنوعة:

١- جواهر القرآن ودرره.

٢- الحكمة في مخلوقات الله.

٣- التبر المسبوك في نصحية الملوك.

٤- آداب النكاح وكسر الشهوتين.

٥- القصيدة المنفرجة.

٦- شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل.

ثناء العلماء على الإمام الغزالي:

١- شيخه أبو المعالي الجويني: الغزالي بحر مغدق. وعندما ألف الغزالي (المنخول في أصول الفقه) في مطلع شبابه، قال له الجويني: دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت، كتابك غطى على كتابي.

٢- الذهبي: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط.

obeikandl.com

٣- ابن الجوزي: صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.

٤- تاج الدين السبكي: حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأو و لم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية.

٥- ابن النجار: أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين أوانه برع في المذهب والأصول والخلاف والجدل والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم وتصدى للرد عليهم، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني.

٦- أبو الحسن الشاذلي: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد.

٧- أبو العباس المرسي: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

٨- ابن العماد الحنبلي: الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه.

٩- ابن كثير: كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه.

١٠- أبو بكر ابن العربي: رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم.

١١- أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

١٢- عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي: أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً.

١٣- محمد بن يحيى: الغزالي هو الشافعي الثاني.

obeikandi.com

١٤- الأسنوي: الغزالي إمام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرءوس. وقال أيضا: وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن يتقرب إلى الله تعالى به كل صديق ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق.

١٥- تلميذه الشيخ أبو العباس الأقليشي المحدّث الصّوفي، مدحه ومدح كتاب «إحياء علوم الدين» في أبيات من الشعر:

أبا حامد أنت المخصص بالمجـــــدِ وأنت الذي علمتنا ســـنن الرشـــدِ
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوســـنا وتنقذنا من طاعة النـــازغ المـــردي
فربـــع عباداتـــه وعاداتـــه الـــتي يعاقبها كالـــدر نظـــم في العقـــدِ
وثالثهـــا في المهلكـــات وإنـــه لمنج مـــن الهلـــك المـــبرح والبعـــدِ
ورابعهـــا في المنجيـــات وإنـــه ليسرح بالأرواح في جنـــة الخُلْـــدِ
ومنها ابتهاج للجـــوارح ظـــاهر ومنها صلاح للقلوب مـــن الحقـــدِ

رؤيا في الإمام الغزالي:

قال الحافظ ابن عساكر[1]: سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفراييني يقول: سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة يقول: دخلت المسجد الحرام يوماً فطرأ عليّ حال وأخذني عن نفسي، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي، فوقعت على جنبي الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة، وكنت أطرد عن نفسي النوم، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة، فرأيت النبي في أكمل صورة وأحسن زي من القميص والعمامة، ورأيت الأئمة الشافعي ومالكاً وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد، وهو يقررهم عليها، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبي بطرده وإهانته، فتقدمت أنا وقلت: يا رسول الله، هذا الكتاب - أعني «إحياء علوم الدين» - معتقدي ومعتقد أهل

(١) انظر: كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، تأليف: عبد القادر العيدروس باعلوي، ص٥.

السنة والجماعة، فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك فأذن لي فقرأت عليه من (كتاب قواعد العقائد): بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد؛ وفيه أربعة فصول: الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالي: وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس؛ فرأيت البشاشة في وجهه. ثم التفت وقال: أين الغزالي؟ وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، وتقدم وسلم، فرد عليه الصلاة والسلام، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها، وما رأيت النبي أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء، ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات.

وفاته:

توفي الإمام أبو حامد الغزالي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ، الموافق ١٩ ديسمبر ١١١١م، في مدينة طوس، وسأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوص، فقال: عليك بالإخلاص، فلم يزل يكررها حتى مات.

مصادر الترجمة:

١- المنقذ من الضلال، تأليف: الغزالي نفسه.
٢- وفيات الأعيان ٤ / ٢١٦ - ٢١٩.
٣- شذرات الذهب ٤ / ١٠ - ١٣.
٤- طبقات السبكي ٤ / ١٠١.
٥- تبيين كذب المفتري ص ٢٩١ - ٣٠٦.
٦- المنتظم ٩ / ١٦٨.

obeikandl.com

أفكار الإمام الغزالي التربوية

التربية عملية إجتماعية، وهذا ما يجعلها تختلف بإختلاف المجتمعات تبعاً للحضارة والثقافة والقيم التي تسودها، ولقد صحبت التربية الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض، إذاً فهي وثيقة الصلة بالمجتمع تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه وقيمه ومعتقداته.

وسيراً على خطى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ومن بعدهم التابعين والعلماء الصالحين أدرك الغزالي أهمية العلم والتعلم والتعليم، وبالتالي أهمية التربية وخطورة دورها في بناء الفرد والمجتمع انطلاقاً من فهمه العميق للإسلام على أساس أنه (رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ورسالة خلق، بل أن يكون رسالة جهاد ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون رسالة كثرة واتساع).

ولقد جمع الغزالي ما بين طرق التربية والتعليم وطرق التزكية والتصفية فأبدع في ذلك مستفيداً مما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعلوم من سبقوه من علماء المسلمين وغير المسلمين بما يخدم رسالة التوحيد. وتجلي ذلك من خلال ما جاء في رسالة « **أيها الولد** » وكتاب «إحياء علوم الدين» وغيرها من الكتب التي لم تخرج عما ورد في الكتابين السابقين. كما ذلك ايماناً منه بأهمية التربية في عملية بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي.

ومن المؤشرات الدالة على أهمية التربية في نظر الغزالي إيمانه العميق بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتأثير التربية عليها سلباً أو إيجابياً، والتربية في نظر الغزالي أيضاً وسيلة لإعادة الاعتدال في حالة انحرف الإنسان عن فطرته وهذا ما جاء به الإسلام.

وإلى جانب رد الاعتدال إلى الفطرة تبرز أهمية التربية في نظر الغزالي كما تشير أقواله السابقة إلى الدور الذي تلعبه التربية في رعاية وتكملة نمو الكفل حيث أن الطفل يولد ضعيفاً وغير مكتمل النمو مما يجعله بحاجة للاتكال على غيره، أي: أنه يفتقر إلى من يرعاه كي يصبح عضواً فاعلا في مجتمعه قادراً على نفع نفسه وغيره والقيام بما خلق لأجله.

ومن دلائل أهمية التربية أيضاً عند الغزالي كونها وسيلة لانتقال العلم من جيل إلى جيل؛ لأن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم، وفي هذا إظهار لقيمة العلماء والعلم فلولاهم لأصبح الناس مثل البهائم.

ومن أجل استمرار الحياة وإعمار الأرض والتغلب على ما قد يواجه الإنسان من تعقيدات وتحولات تبرز التربية كضرورة ملازمة للإنسان.

إذن كان ما سبق تأكيد على أهمية التربية كضرورة فردية واجتماعية من أجل الحفاظ على التراث الإسلامي ونشر رسالة الإسلام لتكون دستور الناس أجمعين حتى رث الله الأرض ومن عليها.

أهداف التربية عند الغزالي:

إن التربية عملية متعددة الجوانب، فهناك الأسرة والمدرسة والمجتمع وهناك المعلم والمتعلم. وهناك الطرائق والمواد التعليمية، علاوة على الأهداف التي تسعى التربية لتحقيقها من خلال رعاية الإستعدادات الفطرية وتنميتها لدى الطفل التي تكفل له النمو السليم.

وترتبط أهداف التربية بعوالم كثيرة منها حاجات الأطفال الذين يربون، وخصائص الحياة التي يعدون لها، ومنها نوع المجتمع ودرجة التقدم التي وصل إليها والظروف الخاصة به، ومنها آراء المفكرين الذين يهتمون بالشئون التربوية ورغبات السلطات والهيئات التي تشرف على المدارس.

لقد كانت أهداف التربية الإسلامية متميزة عن غيرها من الأهداف تبعاً لتميز نظرة الإسلام لله والإنسان والكون والمجتمع والحياة الآخرة.

ولقد أدرك المربون المسلمون أهمية التربية وأثرها في بناء شخصية الطفل مما جعلهم يهتمون بعملية تأديبه، وتهذيبه، تطلعاً لتحقيق غايتين:

أولاهما: الإعداد للحياة الآخرة وهي الأهم.

وثانيهما: بتمكين الفرد من معرفة طائفة من العلوم والمهارات التي تؤهله للنجاح في الحياة الدنيا.

obeikandl.com

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فالمتمعن في الآية الكريمة يدرك أن وسائل بناء الشخصية الإنسانية على أساس من النقاء والطهر واضحة جلية، فالتزكية تمام الأخلاق والتعليم للكتاب تمام معرفة الأوامر والنواحي والحقوق والواجبات كما أنه يفيد معنى زوال الجهل وتعليم الحكمة هو أعلى درجات التعليم لأنها تعني في عرف العلماء الإصابة في القول والعمل، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة يكون قد حصل الخير كله.

وفي إطار تحديد أهدافه التربوية يقول الغزالي: (ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها) وفي هذا تأكيد على أنه يسعى لبناء شخصية متكاملة تنمو في كافة الأبعاد والجوانب الروحية والنفسية والعقلية والاجتماعية والجسمية بشكل مترابط ومنسق، شخصية تعرف أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها. كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه.

فالغزالي يسعى لتحقيق الشخصية المسلمة المتميزة بذاتها إلا أن هذا التميز لا يعني أنها ذات منعزلة بوجودها مكتفية بحدودها، مغلقة بأستارها مغلقة بأقفالها بل هي ذات إيجابية ومتفتحة على الحياة كلها، وذلك لأنه يرى أن العلم والعمل يجب أن يسيرا على ضوء تعاليم الشارع بعيداً عن شطحات المتصوفة ذلك لأن الصوفية في نظره هي المجاهدة.

وإن كان من أحد يسعى لإيجاد طبقة كاملة الرجولة سامية الأخلاق نبيلة الأهداف فإن الغزالي يعتبر رائداً في وضع الصورة الحقيقية لمثل هذا النوع من البشرية.

فللغزالي آراء محمودة في التربية وفي التعليم حيث يرى الغزالي أن الغرض من طلب العلوم هو في المقام الأول التقرب إلى الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة.

كما أن للغزالي آراء في ما يجب أن يكون عليه المعلم والصفات التي يتوجب أن يتحلى بها المتعلم سوف نقوم بإيضاحها إن شاء الله تعالى.

ومهمة التربية وواجبها ووظيفتها في نظر الغزالي: صيانة الطفل من قرناء السوء، وتشجيع الأطفال على الأخلاق الكريمة، واستخدام اللوم والعتاب والتوبيخ ولكن بحكمة،

٧٢ ـــــــ

ولا بقاء له من دونها، فشهوة الطعام ضرورية لحياته ونموه، وشهوة الجنس تحفظ النسل وتساهم في بقاء النوع الإنساني، ولكنه يربط هذه الشهوات بالاعتدال والعفة والعقل.

٤- حسن توجيه طاقات الأمة:

فالغزالي يؤكد على أهمية حفظ طاقات النفس وتوجيهها للإفادة منها على النحو الأمثل، كما دعا إلى ضرورة تخليص الأمة من الشهوات المفسدة للروح الإسلامية، وأكد على الأثر التهذيبي للشريعة الإسلامية في كل من الفرد والمجتمع.

٥- تكوين الشخصية المتوازنة:

ويركز الغزالي في التربية الخلقية على المكونات الرئيسية للنفس الإنسانية وهي: العقل والروح والجسم، وينظر إليها باعتبارها كيانا واحدا متكاملا، ومن ثم جاء تأكيد الغزالي على بعض الأساليب والطرائق التربوية التي تتناول تلك المكونات بشكل متكامل ومتوازن، كالمجاهدة والرياضة لتزكية القلب والروح، والتفكر لتربية العقل، وترقية النفس الإنسانية في مجالات الإدراك، واللعب لتربية الجسم وتنشيط العقل والحواس.

٦- إرضاء الله سبحانه وتعالى:

دعا الغزالي إلى توخي إرضاء الله تعالى، وحذر من مطامع الدنيا الفانية، وحث على إحياء الشريعة الإسلامية والتماس رضوان الله تعالى، ولذلك فهو يرى أن من أهداف التربية الخلقية إعداد الإنسان في هذه الحياة الفانية للدار الآخرة الباقية؛ لأن الغاية المثلى للإنسان في هذه الدنيا هي حسن العبودية لله وتمام الطاعة والخضوع له.

مهنة التعليم في نظر الغزالي:

يرى الغزالي أن مهنة التعليم أشرف مهنة وأفضل صناعة يستطيع الإنسان أن يتخذها حرفة له.

ويستدل على ذلك بالكثير من الأدلة النقلية ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم، فرأى مجلسين: أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه. وفي الثاني جماعة يعلمون الناس، فقال: « **أما هؤلاء فيسألون الله فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ.**

وأما هؤلاء يُعَلِّمُونَ النَّاسَ وَيَتَعَلَّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا »[1]. ثم ذهب اليهم وجلس معهم.

دور المعلم وواجبه:

١- يجب على المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه.

٢- أن يقتدي بالمصطفى صلى الله عليه وسلم فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى، ونحن لا ننتظر من معلمي اليوم التعليم بلا أجر إنما يتوجب عليهم الإخلاص في تعليمهم.

٣- ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً.

٤- أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطرق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ.

٥- ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه. كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه مثلاً .

٦- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه.

وقد ذكر الغزالي في «إحيائه» أن من وظائف المعلم: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله اقتداء بسيد البشر صلى الله عليه وسلم، ولا يبث إليه الحقيقة إلا إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقد قال علي رضي الله عنه وأشار إلي صدره: إن هنا لمعلومات جمه لو وجدت لها حملة! فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلي كل أحد، هذا إذا كان يفهمه المتعلم و لم يكن أهلا لإنتفاع به فكيف فيما لا يفهمه؟ ولذلك قيل: كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار العاص على بعض السرايا الحربية، وعلى حين كلف حسان بن ثابت أن يدافع عنه إمام هجاء الشعراء من قريش بسلاح الشعر الذي هو أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام، و لم يجب أبا ذر إلي طلبه حين سأله أن يوليه لما

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٣/١، رقم ٢٢٩)، والطيالسي (ص ٢٩٨، رقم ٢٢٥١)، والبزار (٤٢٨/٦، رقم ٢٤٥٨)، والحارث (١٨٥/١، رقم ٤٠).

يعرف من صرامة وقد قال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥] ومعنى ذلك أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منح المستحق.

ويقول الغزالي أيضاً: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي، ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق! بل لا ينبغي أن يخاص مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعلم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار، لما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة؛ فإنه ربما تعلق الشبهة في قلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك.

والمقصود: أن المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول بما يناسبها وليس كل دواء يصلح لكل دواء.

٧- أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار.

صفات المتعلم:

١- الابتعاد عن التكبر:

لا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، أو يستنكف عن الإستفادة إلا من المرموقين المشهورين، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يفر بها.

فالعلم لا يُنال إلا بالتواضع، وحسن الإصغاء، وإلقاء السمع، قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده، وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه.

فلكي ينتفع في نظرنا بالدراسة يجب أن يكون قابلا للعلم قادرًا على الفهم، مصغياً كل الاصغاء إلى أستاذه، ليستقبل كل ما ألقى إليه وما سمعه بصدر رحب، وسرور جم، وشكر لمعلمه.

٢- المودة والمحبة بين المتعلمين:

كما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا، فكذلك حق تلاميذ الرجل الواحد التحاب والتوادد، لا التحاسد والتباغض، قال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

والغزالي يدعو المتعلمين إلى المودة والمحبة والتعاون، لا المنافسة والحقد والكراهية، يدعو إلى الصداقة البريئة، والأخوة المخلصة، والتودد تقرباً إلى الله.

٣- الابتعاد في بداية دراسته عن الخلافات:

يجب على المتعلم أن يبتعد في أول دراسته عن الخلافات بين المذاهب في المسائل العلمية، ذلك أن الخوض في العلم يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويجعل رأيه فاتراً، ويبعده عن الإدراك والاطلاع.

وعلينا أن نتفق مع الغزالي في هذا الرأي، فالتلميذ يجب أن يبدأ بالسهل وينتقل منه الى الصعب، ويترك الخلافات العلمية، والآراء المتشعبة حتى لا يقف طالب العلم في حيرة من أمره، ولا يصل اليأس الى قلبه، ووظيفة المعلم هنا هي أن يسهل الصعب ويوضح الخفي، ويرشد المتعلم الى الطريق السهل.

٤- النظر في مختلف العلوم:

«يجب ألا يدع الطالب فنا من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر تبحر فيه ».

obeikandl.com

ترجمة الشارح
الشيخ عبد الرحمن الشهير بـ(صبري)

(٠٠٠ - ١١٣٩ هـ - ٠٠٠ - ١٧٢٧ م)

اسمه ونسبه:

هو عبد الرحمن بن أحمد بن عمر الرومي، الحنفي، الشهير بـ(صبري). من القضاة. ولي قضاء القدس.

ملاحظة: أثناء عملنا في كتاب «سراج الظلمات» شرح أيها الولد للخادمي، وجدنا على طرة المخطوط:

وَشَرَحَ «أيها الولد» الفاضل عبد الرحمن بن أحمد بن عمر الشهير بصَبْري، أوله: الحمد لله الذي جعل أبحر الدرر أفئدة العلماء، وصيّر الغواصين فيها السادات والعلماء... الخ. وسماه «أيّها الأخ».

مؤلفاته:

١- أيها الأخ في شرح أيها الولد للإمام الغزالي. وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

٢- الرشاد في شرح الإرشاد من الأصول.

وفاته:

توفى سنة (١١٣٩ هـ) تسع وَثَلاثِينَ وَمِائَة وألف.

مصادر الترجمة:

١- هدية العارفين ٥٥٣/١.

٢- إيضاح المكنون ١٦١/١، ٥٧٢.

٣- معجم المؤلفين ١٢١/٥.

oberkanalo.com

وصف النسخ الخطية

١- اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب القيم النادر «أيها الأخ» على نسخة محفوظة في دار الكتب المصرية برقم (١٨١٦) تصوف، وتقع في (٨٥) لوحة، وفي الورقة (٢٣) سطرًا، وقد كتبت بخط نسخ واضح.

٢- واعتمدنا النسخة الأزهرية لرسالة «أيها الولد» للإمام الغزالي، وهي تقع في (٢٣) لوحة، وفي الورقة (١١) سطرًا، وقد كتبت بخط نسخ جميل وواضح. وإن كان هناك بعض الاختلافات القليلة بينها وبين الشرح ولكنها لا تؤثر على المعنى.

٣- ثم طابقناها على نسخة جامعة الملك سعود التي كتبت عام ١١٢٣ هـ، وهي تقع في (٤٥) لوحة، وفي الصفحة (١٣) سطرًا، ومقاس الورق ١٢.٥/١٩.٥ سم. وهي نسخة جيدة كتبت بخط حسن.

openkandl.com